المقتطف

الجزء العاشر من السنة الحادية والعشرين

١ اكتوبر (تشرين ١) سنة ١٨٩٧ الموافق ٤ جمادى الاولى سنة ١٣١٥

تاريخ المسكرات

في اوربا

اتضح معنا من المقالتين السابقتين في هذا الموضوع ان الامم القديمة كانت تستخرج الخمر وتعرف خواصها وان بعضها كالرومان عكف عليها حتى تقوضت دعائم مجدهم وان العرب لم يشذوا عن هذا القياس بل كانوا يعرفون الخمرة ويطلقونها ويشربونها ويتغنون بمدحها . ولما جاء الشرع الاسلامي ونهاهم عنها انتهى بعضهم ولم ينتهِ البعض الآخر فبقيت مجالس الشراب غاصة بالندمان إلى ما شاء الله

وقد ذكرنا في الجزء الماضي امرًا حريًّا بالنظر وهو ان العرب كانوا يغلون الخمر حتى يبقى نصفها او ثلثها سيئ الاناء ولم يُذكر قصدهم من هذا الاغلاء لانها اذا أُغليت كذلك صارت كالدبس ولم تبقَ خمرًا . ويظهر لنا من ادلة لغوية وغير لغوية انهُ كان عندهم خمر تصرع شاربها ومن ذلك الشراب المخمَّس السريع الاسكار والمسيُّ المزيل للعقل والقرقف التي ترعد شاربها والفضوخ التي تفضخهُ . فهذه الاسماء تدلُّ على انهُ كان عندهم خمرٌ كثيرة الالكحول ولعلها روح الخمر عينها او شراب آخر كثير الالكحول كالعرق والكنياك وان الاغلاء المشار اليه آنفًا كان يُقصَد به تصعيد الغازات من الخمور بالاستقطار لا تعقيدها بالاغلاء . ولا غرابة في هذا الحدس لان الرومان عرفوا استقطار الارواح قبل الاسلام بنحو ستمئة عام ونشأ الكيماويون بالاسكندرية في القرن الثاني والثالث للميلاد لكن الامبراطور ديوكليان احرق كتبهم ومنع درس الكيمياء لئلاَّ يهتدي اصحابها الى اكتشاف حجر الفلاسفة ويحوّلوا المعادن ذهبًا فيخربوا المملكة الرومانيَّة

وانتقلت العلوم الى العرب فاحتفظوا بها ووسَّعوا نطاقها واخذها الاوربيون عنهم وسمَّوا

روح الخمر كحلاً وحوّلوها بلام التعريف فصارت "الكحل" ولفظوها الكوُّول او الكهول وعرَّبها استاذنا الدكتور فان ديك الكحولاً رادًّا الحاء الى اصلها وتاركًا بقيَّة لفظها على حالهِ للدلالة على المراد ولمنع الالتباس بكحلة الكحل العربيَّة تابعناهُ في هذا التعريب مع ما فيهِ من التحريف اذ ليس الغرض الدلالة على اصل الكلمة بل على مسمَّاها . ولم نرَ دليلاً حتى الآن على ما دعا الاوربيين الى تسمية هذا السائل باسم الكحل . ومن المحقق انهم لم يكتفوا بهذهِ التسمية بل سمَّوهُ زيت الخمر والبلسم العام والكبريت السموي وماء الحياة . وكانوا يذيبون بهِ الطيوب والخلاصات الطبيَّة ويحفظونهُ بالسكَّر ويستعملونهُ دواء واشتهر شأنهُ كثيرًا عندهم في صناعة العلاج

والَّف بعضهم كتابًا زراعيًّا سنة ١٦١٦ ذكر فيهِ كيفية استقطار روح الخمر وسمَّاها ماء الحياة وقال ان مزاياها لا تحدُّ لانها تمنع نوبات الصرع وتطرد السموم . وانهُ اذا كانت البلاد ملاريَّة فعلى كل احد ان يتناول ملعقة صغيرة منها مخلاَّة بالسكر قبل فطورهِ دفعًا للبرداء . ولكنهُ لم يذكر كلمة عن انها مسكرة مع انهُ اسهب قبلاً في مضار السكر

واما الآن مقالة للاستاذ بلو الاميركي وصف فيها شيوع المسكرات في اوربا وادمان الانكليز لها في القرون الماضية واقتصرنا على تلخيصها لاننا وجدناها تفي بالغرض قال

كان الانكليز في الدرجة الثانية بعد الالمان والسكسونيين من حيث معاقرة الخمرة فان السكسونيين والدنمركيين علموهم معاقرتها فجعلوا يستخرجونها من الحبوب والاثمار والعسل وكانت خمورهم قوية لصرع شاربها اما اهالي نرمندي فكانوا اقرب الى الصحو منهم الى السكر ولذلك تغلَّبوا عليهم في عهد وليم الظافر . فقد ذكرت التواريخ القديمة ان الانكليز سكروا ليلة اليوم الذي ناجزهم فيهِ النورمنديون فتغلب النورمنديون عليهم وملكوا بلادهم لكنهم لم يلبثوا ان اقاموا فيها حتى عكفوا على السكر مثل اهلها . وكان السكر سبب هلاك ابن ملكهم هنري الاول ابن وليم الظافر سنة ١١٢٠ فانهُ اقترن بابنة امير انجو بفرنسا وركب البحر ليعود الى بلاد الانكليز مع زوجتهِ وحاشيتهِ من الامراء والعظماء فسكروا هم والبحَّارة ونشروا شراع السفينة واعملوا المجاذيف في جوانبها . وما طلك بسفينة ركابها سكارى وبحَّارتها سكارى فاصطدمت بصخر وغرقت في وكل من فيها وكان عددهم ٣٠٠ نفس ولم ينجُ منهم الاَّ رجل واحد وهو جزار من اهالي روان وكان افقر رجل بين الركاب

وشاعت معاقرة الخمرة في كل البلاد الانكليزية حتى قال بعضهم ان الناس لم يكونوا يشربون الماء الاَّ اذا تركوا الخمر زهدًا وتقشُّفًا قصد العبادة . وسنة ١٤٩٨ كتب سفير اسبانيا في انكلترا الى الملك فرديناند والملكة ايزابلاَّ ان يعوِّدا الاميرة كاترينا التي كانت

محظوظة لولي عهد الانكليز شرب المسكرات لكي تسهل عليها المعيشة في البلاد الانكليزية

ولم يكن شرب المسكر قاصرًا على خاصة الناس او على عامتهم بل كان عامًّا شاملاً يتناول خدّمة الدين كما يتناول رعاع الشعب . ويقال ان افراط الرهبان والراهبات في السكر هو السبب الاكبر الذي حمل الملك هنري الثامن على اقفال الاديرة . ولما تولّت الملكة اليصابات المشهورة بغيرتها الدينية كانت تنظر إلى شعبها يوغلون في الشراب ولا تحسب ذلك امرًا ممنوعًا . ويقال انهُ لمَّا ضافها امير لستر في قصر كنيلورث فتح ثلثمئة وستين برميلاً من البيرة عدا ما فتحهُ من براميل الخمر

وزادت معاقرة الخمرة في اواخر ملكها وفي ملك خلفها الملك جمس الاول . واولم الوزير سسل وليمة لهذا الملك ولضيفهِ كرستيان الرابع ملك الدنمرك فسكر الاثنان سكرًا طافحًا وسكرت النساء ايضًا . ولما تولى سرير الملك وليم الاول سنة ١٦٨٨ بلغ اقبال الناس على المسكرات حدًّا لم يبلغهُ من قبلُ وكانت روح الخمر تستخرج من الخمر نفسها فصاروا يستخرجونها من البيرة وكانت تستخرج في فرنسا فقط فصارت تستخرج في سويسرا وهولندا واماكن اخرى فرخص ثمنها وسهل تعاطيها على عامة الناس وتملّم الانكليز استخراجها فطفت على بلادهم كالسيل الجارف

ويقال ان حانات السكر ملأت مدينة لندن وكانوا يكتبون على ابوابها "السكرة بنصف غرش والسكرة الطافحة بغرش ويعطى السكران قشًّا ينام عليهِ بلا ثمن". وكثر ادمان المسكر المطيَّب بالزنجبيل وهو المسمَّى بالجن حتى خيف من عاقبتهِ على الامَّة كلها فاصدر البارلمنت الانكليزي لائحة فرض بها عشرين شلنًا على كل حانوت من حوانيت الاشربة الروحية وخمسين جنيهًا ثمن الرخصة لمن يتعاطى بيع هذه الاشربة فعلت شكوى العامَّة وقالوا ان الحكومة تريد منع الشراب الذي يشربهُ الفقراء واما الخمور الَّتي يشربها الاغنياء فغضَّت الطرف عنها وعلقوا على الحانات اثواب الحداد وسكروا ليلة تنفيذ هذه اللائحة سكرًا مفرطًا وابتاعوا كل ما يمكنهم ابتياعهُ من الجن وذهبوا بهِ إلى بيوتهم

وجعل الصيادلة يبيعون هذا المسكر دواء باسم ماء القولنج او راح النساء . وكثر الجواسيس الذين يشون بالشاربين والبائعين لاخذ الجزاء من الحكومة . وكثر القلق والاضطراب بسبب ذلك فاضطرت الحكومة ان تعدّل هذه اللائحة بعد سنتين او ثلاث

ولم يكن خاصَّة الناس اقل سكرًا من عامتهم بل كانوا يدمنون المسكرات الشديدة الفعل الغالية الثمن . ولو توقفت عظمة البلاد على اشرافها لما كان لها الآن عين ولا اثر . وكان الخواص يسهلون سبل السكر على العوام فاذا احسن الجنود او العمَّال او الخدام واراد ومكافأتهم

اعطوهم مسكرًا او اعطوهم مالاً يتعاونهُ بهِ . وكان الصبر على المسكر من لوازم الكياسة ورفعة المقام فلا منزلة عندهم لمن يسكر من كأس او كأسين . والرجل الندب مَن يعتاد المسكر حتى يصرع الندمان ولا يصرع ومن ليس كذلك احتقروهُ وصحَّ فيهِ ما قالهُ الشاعر العربي

اصرف سفائح هذا الشرب عن رجلٍ لهُ بُضيعة في الشرب مزجاة

وكان المرء منهم يشرب في ليلتهِ رطلين وثلاثة هذا اذا عدل واعتدل وكانوا اذا امتلأوا من الطعام يبقى الرجال على المائدة يعاطون كؤوس الشراب ويتركهم النساء لكي لا يزعجنهم فيقارع احدهم الآخر الى ان يسكروا كلهم ويقعوا تحت المائدة . وكان السكر شائعًا حتى بين العلماء ورجال الدين . ولا تحسبنَّ انهم عاشوا كذلك ونجوا من المضار كلاَّ بل زارع الشر يحصد الخراب فتصرت اعازم واستولت عليهم الامراض ولاسيما داء النقرس الاليم وكانوا يصورونهُ بحيوان فيهِ المنظر تخرج السهام من مخرجيهِ وقد ثبتت مخالبهُ في قدم الانسان . وكان اذا اكتهل احدهم ولم يُصب بهذا الداء عدَّ من الشواذ او حسب من شرَّاب اللبن لا من شراب الراح . وهل يصدَّق ان بت وفوكس الوزيرين الشهيرين والسياسيين المحنَّكين كانا من مدمني الخمر . يقال ان الوزير بت دخل مجلس النواب مرة وهو يترنح فقال لرفيقهِ ابن رئيس المجلس ذاهٍ لا اراهُ فقال لهُ رفيقهُ كيف لا تراهُ وانا اراهُ اثنين . ونظم ذلك بعضهم شعرًا وهم يتمثلون بهِ الى الآن . ودام الحال على هذا المنوال الى ان رقيت الملكة فكتوريا الى سرير الملك

ثم استطرد الكاتب الى تاريخ المسكرات في الولايات المتحدة الاميركية وابان ان الشراب كان من لوازم المعيشة حتى ان الذين نزلوا اميركا اولاً هربًا من الاضطهاد الديني ورغبة في سكن بلاد يعبدون خالقهم فيها كما ترشدهم ضمائرهم كانوا اذا ذكروا لوازم الحياة عدوا الخمر في اولها . وقال ان اهالي المانيا وهولندا كانوا يعاقرون الخمر اكثر من الانكليز والاميركان . هذا حال الاوربيين والاميركيين منذ خمسين او مئتين عامًا اما الآن فالسكر عندهم اقل والصحو اكثر وقد جلنا في بلادهم شهورًا وقلما شاهدنا سكيرًا . نعم انهم يشربون الخمر على الطعام دائمًا وقد رأينا الفلاحين والاجراء لا يشربون غير الخمر على طعامهم ولكنهم لا يشربونها الى حد السكر في ايام العمل . وجمعيات الامتناع عن شرب المسكرات دئبة على حث الناس وانذارهم حتى لا يقعوا في مالا خلاص لهم منهُ ومع ذلك فضحايا السكر كثيرة في اوربا واميركا واكثر منها في كل البلدان التي دخلها التجار الاوربيون والاميركيون وادخلوا اليها المسكرات حتى قال غير واحد من الثقات ان انقراض الامم المتوحشة سيكون على يد الاشربة الروحية